

رأي في جذور الضمائر العربية

الدكتور محمد التونجي

مع ضمائر الرفع : أنا ، أنت ، أنت ، أنتما ، أنتم ،
أنتن ، ومكسورا مع ضمائر النصب : إياك ، إياك ،
إياكما ، إياكم ، إياكن .

« وإذا أراد العربي أن يتكلم عن نفسه لفظ
الحرف « أ » وأشار بيده إلى نفسه وإذا خاطب من
أمامه قال « أ » وأشار إليه كما أنه إذا أشار إلى
الغائب قال « أ » وأشار بأصبعه
إلى الخلف . ولا زالت الإشارة بالبنان تقوم مقام
الضمائر حتى الآن » .

وتأتي مرحلة أبعد مدى ، وأكثر تطورا ، بآن
إضاف حميد هذا الإنسان نونا ، سماها بعض علماء
اللغة « نون الاشارة » وآخرون « نون الواقية » ،
ولعل تسميتها « نون الانتقال » أفضل في رأينا ، لأنها
تنقل معنى الضمير « أ » من عام إلى خاص ، بما
يلحقها من ضمير متصل آخر . ولا تعطي هذه « (النون) »
معنى غير ما ذكرنا ، ولا قيمة لها في التعبير . ولعل
هذا الإنسان اختار النون لخفتها . وكان يمكنه أن
يستعمل حرفا خفيقا آخر لو أن حجرته أو ظروفه

أثبت علماء اللغات أن الضمائر من أقدم الانفاظ
التي نطقها الإنسان معبرا بها عن نفسه ، أو عن
مخاطبه ، أو الشخص الذي يتحدث عنه . وليس
أشكال الضمائر اليوم هي نفسها التي كانت منذ مئات
السنين ، أي منذ اختراعها الأول . ذلك أن سنة تغير
الانفاظ تابعة للمكان والزمان والبيئة والتطویر
الفيزيولوجي لحجرة الإنسان .

« ومن البديهي أن يكون الصوت « آ » أول حرف
نطقه إنسانا الأول في الجزيرة العربية . ولهذا فاته
استخدامه في النداء والاستغاثة والترجم والتنبية والتحث
والضجر والتصديق والاجابة . فإذا تعلم الإنسان
نطق، بلاوعي منه، لفظة « آي »، وإذا أراد التصديق على
أمر قال « أ » أو « آ » حسب المنطقة التي نشأ فيها .
وإذا استفهام عن أمر نطق « إيه؟ » والهاء للوقف
طلبنا ، وهكذا » .

وبعد حين من الزمان دخل هذا الحرف مرحلة
تركيب الضمائر ، وعد أسا مهما بها . إلا ترى أنهم
يبدأون به في مطلع كل ضمير؟ فتراهم يلفظونه مفتوحا

مساعدته على ذلك .

والذى يسهل علينا تحليل هذه النون ، وامكانية حذفها ، والبرهان على عدم أهميتها أنه يمكن الوقوف عليها « للانتقال » في بعض اللغات السامية كالعربية الشمالية والحبشية والسبئية من عربية الجنوب . ويمكن ادغامها كذلك في لغات أخرى كالعربية والعبرية والأرامية والاشورية والاوکاريتية فنقولون بدلا من « أنت » ، و att بدلا من âttâ « أنت » . وتعلمون في مسألة التجويد أن النون تدغم ، ويقال لها « نون بقنة » . فالعربي الذى يصادف التركيب « ومن يفعل » فاته ، ولا شـك ، سيدغم النون طواعية ويقرأ : « وميفعل » .

وال المصريون لازالوا ينادون ابنتهم بقولهم : « اسمى يابت » ، دون ان يلفظوا النون ، اللاذقيون في سوريا (وهم سكان منطقة اوكاريت اصلا) يقولون اليوم : « شويك ات ؟ » من دون النون ايضا . ولم يلفظوها هكذا عينا ، انما هذا برهان اكيد على وجود لهجة خاصة كانت عدد من القبائل العربية خاصة ، والسامية عامة تدغم حرف النون في بعض الفاظها .

وفي اللغة الزرديشتية (لغة اوستا) حرفان
للتون ، واحد بفتحة ، وآخر بلا فتحة ، وكل واحد
منها رسم خاص ، ومنطلق صوتي من الحنجرة
(انظر كتابنا المجموعة الفارسية : 62) .

والانكليز عندما يريدون تنكير كلمة ما يضعون قبلها الحرف الصوتي «a» مثل : a man ، اذا كانت الكلمة النكرة مبدوعة بحرف صوتي آخر ، فانهم يضيفون بين الحرفين الصوتين المجتمعين حرف النون الخفيف ، خشية ضياع احدهما في الآخر ، فنقولون : an eye ; an arm

وما الآلف بعد « نون الانتقال » في الضمير
« أنا » سوى فتحة مديدة . وضمير المتكلم في
الخشية هو « أن - *ânnâ* » يفتح النون لا مدتها

والشعراء العرب منذ الجاهلية ، غالباً ما يهملون الف « أنا » في العروض ضرورة شعرية . والواقع أن هذا خلاف لغوي حدث منذ ذلك سنة ونيف بين مدرستي البصرة والكوفة ، فالكافيون يعتبرون الآلف الأخيرة من الكلمة ذاتها ، والبصريون يدعونها مدا لفتحة ، وطالت هذه المدة مع الأيام . وكان يمكن البصريين أن يغلبوا خصومهم ، ويحذفوا رايمهم فيما لو كانوا يعرفون بعض اللغات السامية .

بل ان العبريين يلفظون الشمير « أنا » هكذا
Ani ، ولعل الياء عندهم هي ياء المتكلم جاءت
لتتأكد الهمزة ، وتعيين الشمير . كما ان بعض
القبائل العربية تديما ، وحتى الان ، تقول :
« أني » او « آنني » .

وفي الانكليزية برهان على أن الهمزة أصل
الضمائر أذ يقولون للضمير المتكلم : ؟

فإذا أراد المرء مخاطبة شخص أو أشخاص
أمامه لنظر المهمزة أولاً ليدل على أنه بدأ بالضمير ،
ثم أضاف تاء لتعيين المخاطب ، ووضع بينهما « نون
الانتقال » واترك للقاريء فرصة تحليل ذلك بنفسه :

८ + ८ + १
८ + ८ + १
८ + ८ + १
८ + ८ + १

ثم اضاف « ميمَا » علامة جمع الذكور
للمخاطبين ، و « نونا » علامة جمع الاناث للمخاطبات.

وقد يخالجنا الشك في أن أصل الضمائر همزة اذا نحن تذكّرنا ضمير المتكلمين «نحن» . اذ ان الماء لا يجد همزة في هذا الضمير ، ولكن الرأى انها كانت تنطق قديماً : «أנו» . اى ان الهمزة ضمير المتكلم والنون للانتقال والواو للجمع ، ثم توسطتها الحاء بعد حين ، فصارت : «أحنون» . وقد ظلت تنطق في العبرية كذلك حتى اليوم فيقولون انحن : ولها شكل آخر هو الاقدم وهو : Anahnu

أن « ال » التعريف عندهم « هاء » تتلوها شدة ، والشدة عندهم دلالة على حذف اللام كالعبرية فقالوا : هجمل ويعنون الجمل ، وهئمس ويريدون الشمس . ولعل العبريين اقتبسوا ذلك عن جيرانهم الصنوبيين .

وهمة الاستفهام العربية تقوم مقامها في العبرية هاء ، وهاء النداء العبرية تقابلها همة النداء في العربية ، بل ان العرب استخدموه هاء في الاستفهام عوضا عن الهمزة ، قال شاعرهم :

واتي صواحبها فقلن : هذا الذي

منح المودة غربنا وجفانا ؟

وقصد قائله : اذا الذي ؟ . ولا ننسى ان الهمزة والناء من مخرج واحد في الحجرة .

والفعل « هراق » بمعنى صب ، يقول القاموس فيه : « وأصله أراق » وهذا يثبت ان الهاء اصلها همة . ونحن نقول : هيا للنداء ، وأصلها ايها ، وبهيه للابل قال لها : ياياه . وهيهات لغة في ايها ، ويقال لها ايضا : هييان ، وايهان ، وآيهات ، وهایهات . والفرس يقولون للضمير هو « او » .

نصل من هذه الامثلة الى ان اصل « هو » همة مدت ضمتها ، وأصل « هي » همة مدت كسرتها . أما الميم فللجمع في « هم » والنون للنسوة في « هن » ، والالف للتثنية في « هما » .

وخلالقة النكرة ان اصل الضمائر السامية جميعا لفظة « ا » ، والتى دعوناها « همة » ، ثم عرتها تغيرات ، وأصابتها اضافات حتى بلغت الضمائر العربية المرحلة التى هي عليها الان ، ولا مانع من ان تمر بها تغيرات اخرى ، تكون ضمائرنا فيها اليوم بمثابة مرحلة اخرى للتجديد والتطوير .

« Anou » والارامية القديمة تلفظها كذلك Aninu, Anini، الآشورية لها لفظتان هما Ennahnan

ولعل بعض القراء يريد ان يبادهن بسؤاله عن « هو » و « هي » وغيرهما من الضمائر المبدوءة بالهاء ، وكأنه يتصور انه فاز بقصب السبق ، او انه سحب ثلاثة الايام من تحت القدر الذى طبخت فيه هذه اللغات . لا ، فان الضمير « هو » ابسط من ان نتصور ، وتطليه اخف ظلا بعد ان اتبنا الحلول العلمية للهمزة .

ذلك أن اصل « هاء » ضمائر الغائبين ايضا همة الضمير الاول ، مكسورة او مضمومة . والغريب أنها كذلك في الانكليزية ، فقالوا : He للغائب المفرد المذكر ، وأضافوا على ذلك الحرف « S » للدلالة على المؤنث فقالوا : She . فالضمير العربي – في رأينا – همة مضمومة مدت ممع الايام ، ثم فتحت وفتحت زائدة ، وليس من الاصل الآرامية والعربية تقولان Hou للضمير هو « » ، و He للضمير « هي » بلا حركة في ختام الضمير ، ونحن نقول : لا الله الا هو ، من دون فتح الواو ، خاصة في ساعات انسجام الروح مع النفس ، والانكليز يقولون لاسم الموصول والاستفهام الدال على العاقل الغائب Who

اما كيف صارت الهمزة هاء فالامر بسيط ، ذلك ان اللغات السامية جميعا كثيرا ما تحول الهمزة الى هاء ، فـ « ال » التعريف العبرية هي « هل » وليس « ال » ، ثم لحق اللام ادغام ، فنقيبت الهاء وحدها . و « هل » كذلك لغة في « ال » عند بعض القبائل العربية . وقد ورد لدى بعض القبائل البدائية كالصوفية (نسبة الى منطقة الصفا جنوب سوريا)